اجتهادات
درس من معركة فكرية

كان السويسرى جان جاك روسو أول مفكر تنويرى يُقام له تمثال فى باريس بُعيد الثورة الفرنسية. ربما كان ذلك الاهتمام بتكريمه قبل غيره مصادفة, وربما كان تعبيرًا عن إدراك أن أفكاره أسهمت فى التمهيد لتلك الثورة أكثر من غيره0

والحق أن أثر روسو السويسرى الأصل فى الفكر، كما فى المجتمع الفرنسى، كان أقوى من التنويريين الفرنسيين بمن فيهم فولتير الذى يُعد أشهرهم. وهذا طبيعى فى مرحلة اختمار ثوري, لأن أفكار روسو هى الأكثر جذرية (راديكالية) فى القرن الثامن عشر.

وكانت أفكاره الاجتماعية الجذرية فى كتابه العميق (خطاب فى أصل التفاوت وأسسه بين البشر) الصادر 1755 أهم ما أثار خلافًا مع مفكرين تنويريين آخرين0 وعندما تلقى فولتير نسخة من هذا الكتاب، بعث رسالة إلى روسو كتب فيها ساخرًا: (لم يحدث أبدا أن استخدم أحد كل هذا الذكاء لكى يجعلنا أغبياء إلى حد أن تعترينا الرغبة فى أن نمشى على أربع أرجل).

والأرجح أن فولتير قصد إساءة تأويل رؤية روسو، وهو ما شرحه د. عبد العزيز لبيب الذى دقَّق ترجمة كتاب أصل التفاوت، وقدَّم لها، إذ خلص إلى أنه (حاشا لفولتير ألاَّ يُدرك مقاصد روسو، بل ألاَّ يفهم ما يقوله بصريح العبارة. فقد قصد التغافل عنها لراديكاليتها المُضمرة). والحق أن

راديكالية روسو فى هذا الكتاب كانت صريحة، وليست مُضمرة، خاصةً فيما يتعلق بنقده الأول من نوعه للتفاوت الاجتماعى، ومحاولته تصور كيف نشأ فى بداية الانتقال من حالة الطبيعة المُفترضة إلى الحالة الأولى للاجتماع الإنساني.

وتنطوى المعركة بينهما على دروس, لعل أهمها حتى الآن هو عدم أخذ كل ما يُقال على محمل الجد مهما يبلغ الإعجاب به, مثل ما كتبه فولتير إلى روسو عن استعداده للموت دفاعًا عن حقه فى إبداء رأيه. فقد كتب تلك العبارة, التى اشتُهرت فى العالم, فى الرسالة نفسها التى سخر فيها من روسو. ولكن أكثر من يُرَّددونها أو يتخذونها شعارًا لا يعرفون السياق التى كتبها فولتير فيه، وكيف أنها وردت فى رسالة لا تدل على احترام رأى آخر.